طوينا «ذاكرة الصحافة المغربية» التي ستصدر في كتاب، لنحلق بعيدا في رحاب نفس القطاع، ولكن مع الاختلاف في كون السفر الأول كان في الزمان، رجوعا إلى ماضي المؤسسين، وهذا السفر الثاني هو سفر في المكان بحثا عن بروفايلات ومسارات الصحافيين المغاربة العاملين بالخارج. هم كثر يعدون بالمئات، متألقون، حيث يشتغلون في القارات الأربع وفي أكبر المؤسسات الإعلامية عبر العالم، منهم المدير والمسؤول ورئيس التحرير وكبير المراسلين، ومنهم المحرر والمراسل الحربي والمحلل، لهم حكايات وقصص ومغامرات تستحق أن تروى لتكون شاهدا على أن السؤال الذي نطرحه هنا يبقى مشروعاً: لماذا توجد أنفس الكفاءات الصحافية في الخارج والإعلام هنا في الوطن يئن؟ الجواب في ثنايا هذه الشهادات لكتاب التاريخ اليومي بأقلام سفراء المملكة الشريفة.

عبد الرحيم الفارسي كبير مراسلي «سكاي نيوز» العربية بلندن

عشت أهوال الحروب و«البي.بي.سي» مدرستي الحقيقية

لولا زلة وزير في حكومة التناوب لم يفصح عنه زميلنا عبد الرحيم الفارسي، ما كان هذا الشاب ليقتنع بالهجرة تحت سماء أخرى غير سماء الوطن. من وكالة المغرب العربي للأنباء إلى الـ«بي.بي.سي" التي خبر كل هياكلها، حيث ساهم في تأسيس تلفزيونها، ورغم أنه الآن كبير مراسلي "سكاي نيوز" العربية بلندن، إلا أن أهم محطة في حياة الفارسي ستظل هي الـ«بي.بي.سي". لقد عاش عبد الرحيم الأهوال وهو يغطي الحروب، ولكن تجربته المهنية ما كانت لتكون بهذا الوزن لولا التواجد في قلب المخاطر.

حاورته: نجاة أبو الحبيب n.aboualhabib@gmail.com

كيف بدأت علاقتك الأولى مع الصحافة؟

■ ما أذكره هو أن عشقي للعمل الصحفي بدأ في أواخر عام 1979. كنت أبلغ من العمر عشرة أعوام، حين أثارت اهتمامي برامج إخبارية خاصة كانت تبثها الإذاعة الوطنية في الرباط مرفوقة بموسيقى حماسية تعلن عن نهاية عقد السبعينيات وبداية عقد آخر. آنذاك شدت اهتمامي أسماء غريبة علي مثل الرئيس السوفياتي أندري غروميكو والفرنسي جيسكار ديستان والمصري أنور السادات، وأسماء أعلام جغرافية كالزايير (الكونغو الديمقراطية حاليا) وتشيكوسلوفاكيا، إلخ. شرعت في سؤال الوالد وعمي ثم المعلمين لعلهم يشبعون شيئا من فضولي الطفولي. انتقلت لقراءة الصحف الورقية التي كانت متاحة آنذاك كـ«المحرر» و«العلم»، وأوراق من صحف فرنسية كان أصحاب الدكاكين يلفون فيها قطع الصابون والتوابل وبذور عباد الشمس. كانت تلك البقايا تزيد من تعطشي للقراءة الصحفية، بينما لم تكن تعني سوى مادة تلفيف رخيصة لأصحاب المتاجر. مع مرور السنين كبر الاهتمام فصرت مواظبا على شراء الصحف اليومية والمجلات ومشاهدة نشرات أخبار الثامنة والنصف مساء على شاشة التلفزة المغربية وكذلك نشرات هيئة الإذاعة البريطانية ومحطة فرنسا الدولية (ار اف إي). ثم كانت فترة الدراسة في جامعة محمد الأول بوجدة، حيث أصبح التحرك في الساحة الطلابية مقرونا بتعلم بعض أبجديات العمل الصحفي غير المنظم. فبدأت أكتب مراسلات بأسماء مستعارة في بعض الصحف المعارضة واليسارية.

متى بدأت ممارستك الفعلية للصحافة؟

■ أعتبر خريف عام 1995 نقطة انطلاقة عملي الصحفي الفعلي، إذ نجحت في اختبار الالتحاق بوكالة المغرب العربي للأنباء. لم يكن من السهل آنذاك تخيل الحصول على وظيفة في الوكالة، أولا لكثرة المتنافسين على مجموعة محدودة من الوظائف. ثانيا لأن ذلك تزامن من توقف شبه كامل للتوظيف في القطاع العام. ثالثا لأنني كنت قادما من شرق المغرب، في الوقت الذي كان نصيب الأسد لأبناء المحظوظين من مناطق أخرى مما كان يسمى بالمغرب النافع.

قبولي في (لاماب) جاء مباشرة بعد أن رفض طلب لي للدراسة في السلك الثالث بالمعهد العالي للصحافة، إذ تعامل مسؤولون في قسم الترشيحات في المعهد مع طلبي بالسخرية في وجهي لسبب لم أعرفه.

هل تتذكر أول موضوع اشتغلت عليه؟

■ أول موضوع أسندت لي تغطيته كان عاديا للغاية. في إحدى ليالي الأحد الشتوية استضافت المدرسة الوطنية للصناعات المعدنية في الرباط عشاء-مناقشة بين طلاب المدرسة وفريق من الأساتذة، وكان الموضوع هو دور الإعلاميات في التنمية. وقد كان من الموضوعات الدارجة كثيرا في ذلك الزمن. بالفعل أنجزت التغطية وتم بثها على نشرة الوكالة. في اليوم الموالي نادى علي رئيس التحرير الوطني، فأعرب عن تبرمه من العنوان الذي وضعته للقصاصة، وأجبته بأن كل الزملاء يضعون عناوين مماثلة، فكان رده:«هل تريد أن تكون غبيا مثل البعض؟». فوجئت بذلك الجواب، وفهمت أنه ثمة من يريد لي النجاح. وخلال ذلك اليوم توجهت لتغطية وصول الرائد الخويلدي الحميدي، عضو مجلس قيادة الثورة في ليبيا، حاملا رسالة من معمر القذافي إلى الملك الراحل الحسن الثاني. بينما أنا أنتظر أمام قاعة الاستقبال الرسمية في مطار الرباط سلا، إذا بسيارة رسمية تقف فجأة أمامي. أنزل زجاج النافذة الخلفية فإذا بوزير مشهور بسلاطة اللسان يسألني عمن أنتظر. قلت له إنه الخويلدي الحميدي، فرد علي:«وماذا يريد هذا الحميدي؟». قلت لا أدري، فما كان منه إلا أن قال«تفووو ما كتعرفو والو، لاش مخدمينكم». ثم أمر سائقه بالسير. ذلك الوزير، وقد انتقل إلى دار البقاء بعد وفاة الحسن الثاني ببضعة أعوام، كانت لي وللكثير من الصحفيين صولات معه وجولات، كانت تنتهي بالضحك من قفشاته وتصرفاته الغريبة.

هل صادفتك صعوبات في البداية؟

■ في الأسبوع الثاني لتوظيفي في الوكالة جاء زميل قديم إلي ثم قال بصوت مرتفع «إن ميزانية المؤسسة انتهت وقد قررت أن تتخلص من الشباب الذين وظفتهم، ليس لدينا ما ندفعه لهم». كانت دفعتي تضم أنس بن صالح، العامل حاليا في الجزيرة بالدوحة، وعددا من الإخوة. كانت تلك الكلمات بمثابة حمام بارد على الجميع. أدركنا بعدها أن تلك كانت عادة الزميل مع الصحفيين الجدد، إلى أن وافته المنية قبل ثلاثة أعوام، رحمه الله.

الصعوبات كانت جمة في البداية. بعض الزملاء كانوا يعمدون لاستفزازنا بطرق شتى قبل ترسيمنا، لكي نرد على استفزازاتهم حتى يتم طردنا. كان تكويننا النظري ضعيفا في البداية وكنا نعتمد على تقليد ما كان القدامى يقومون به، فيما أنا كنت أقارن كيفية عملي مع تغطيات الأنشطة التي كان ينجزها مراسل «فرانس برس» المرحوم عبد الفتاح فاكهاني ومراسل رويترز الأسبق علي بوزردة.

لم تكن سمعة (لاماب) جيدة، رغم أنها كانت هي التي تقدم في المقام الأول المادة الخبرية التي تعتمدها إذاعة الرباط وميدي 1 والقناتان الأولى ودوزيم وكافة الصحف اليومية.

تعامل الوزراء والمسؤولين كان سيئا، إلى حد أن أحد وزراء الاتصال كان يضطرنا لتحرير مداخلاته وترجمتها إلى الفرنسية وإرسالها إليه، وانتظار بضعة أيام لكي نحصل على التأشيرة منه لنشرها. أما الراحل إدريس البصري فحدث في تغطياته ولا حرج، فقد كان حريصا على تغطيات نشرة الوكالة لأنشطته أكثر من حرصه على أنشطة حكومية كبرى. في إحدى المرات دخلت على اجتماع في رطار اللجنة العليا المشتركة بين المغرب وإحدى الدول العربية الوازنة، كان ضمن الحضور وفد وزاري كبير من تلك الدولة، وأعضاء من حكومة عبد الرحمن اليوسفي الأولى. نظرت إلى البصري فإذا به كان منهمكا في ضبط كلمات أوراق بين يديه. ظننته يدون البيان الختامي أو يعدل ورقة خطاب سيلقيه في الاجتماع. اقتربت منه أكثر فإذا به كان يصحح ما كتبته (لاماب) عن أحد نشاطاته، قبل الترخيص بنشره.

لكن من باب إحقاق الحق، فإنه رغم الصعوبات الجمة التي اعترضت سبيلي في البداية، فقد تعلمت الكثير في تلك الفترة.

هل هناك أسماء إعلامية أثرت في مسارك المهني؟

■ لا أذكر من البدايات سوى الأخ عبد الكريم المالكي، مدير التحرير الوطني في وكالة المغرب العربي للأنباء، الذي علمني كيف أشحذ قلمي في البدايات، وأتحرى الدقة بالنظر إلى المراقبة الشديدة التي كانت تخضع لها قصاصات الوكالة من كل الفاعلين السياسيين والحزبيين والوزارات والبعثات الدبلوماسية. بعدها استفدت كثيرا من المرحوم عبد الفتاح الفاكهاني، لأنني تعلمت التغطيات الميدانية من خلال مقارنة تغطياتي لنفس الأحداث والأنشطة بما كان ينشره هو في قصاصاته.

لكن لاحقا يظل الصحفي الأكثر تأثيرا في مساري المهني كمراسل حربي هو جون سمبسون John Simpson، مراسل الشؤون الدولية في «بي بي سي» الإنجليزية. لقد تعلمت من تقاريره ومن كتبه ومن خلال مرافقته في أفغانستان والعراق وليبيا، وحاليا لحظة إجراء هذه المقابلة، في شبه جزيرة القرم، حيث تصادف وجودي هنا في سيمفيروبول مع مجيئه لتغطية الأزمة الأوكرانية.

كيف بدأت تجربة الاشتغال خارج الوطن؟

■ كثير من الصدف العابرة تترك أثرا مقيما في حياتنا. في عام 1999 كانت الحرب الأهلية مازالت مستعرة في الجزائر. وبينما كنت في منزلي أتابع موجزا للأخبار على قناة «دوزيم»، إذا بالمذيعة تقول إن ثلاثة عشر شخصا قتلوا في انفجار وقع بالعاصمة. هزني ذلك الخبر فاتصلت بالتحرير العربي في الوكالة لمعرفة تفاصيل التفجير. كان الزميل أنس بن صالح هو المداوم، فأوضح لي أن الانفجار وقع في الجزائر العاصمة وأن كلمة الجزائر ربما سقطت سهوا في الخبر الذي تلته الزميلة مريم الفرجي . ثم سألني إن كنت قد قدمت طلبا للعمل في «بي بي سي» التي نشرت إعلانا بذلك الخصوص في جريدة «العلم»،

الفارسي في مقر حلف شمالي الأطلسي (الناتو) ببروكسل

عبد الرحيم الفارسي يتوسط مجموعة من الأفارقة الناطقين بالأمازيغية (تماشيق) في شمالي مالي

سيما وأنني خريج قسم الأدب الإنجليزي وسبق لي أن تعاونت بمقالات كثيرة مع إحدى الصحف السعودية الصادرة بلغة شكسبير.

بعثت بناء على ذلك بطلب الترشح إلى «بي بي سي»، فجرى قبولي بعد اختبار كتابي في الرباط ومقابلة شفوية في لندن.

أشير هنا إلى أن الهجرة لم تراودني أبدا، وكنت أقول للزملاء دائما إن رحلنا نحن فلمن نترك المغرب. لكن رأيي تغير جذريا بعد حادثة حصلت لي مع أحد الوزراء الاتحاديين.

← ما هي هذه الحادثة؟

■ حين تشكلت حكومة اليوسفي نشبت منافسة شديدة بين معسكر وزير الدولة وزير الداخلية إدريس البصري، وبين بعض الوزراء الاتحاديين. كان بينهم وزير كبير تولى ثلاثة قطاعات، وكان يصر على أن يعامل تماما كما يعامل البصري. في أحد الأيام نظمت وزارته يوما دراسيا في المدرسة المحمدية للمهندسين في الرباط، كان موضوعه هو تحقيق التكامل والإنسجام بين القطاعات الثلاثة التي يتولى الوزير الاتحادي حقائبها. في الصباح أنجزت تغطية مطولة لمداخلة صاحبنا، كما هو مطلوب مني. وفي المساء تحدث الخبراء والتقنيون، كما تدخل الوزير لمدة ثلاث دقائق، فأفردت له فقرتين ضمن تغطية جلسة الختام.

من عدة أحزاب ذهب مندوبوها للمشاركة في أحد اللقاءات المغاربية، والاجتماع مع العقيد القذافي.

بمجرد عودتي إلى الرباط بعد أسبوع، وجدت بانتظاري استدعاء من المدير العام للوكالة، عبد الجليل فنجيرو، للاستفسار عن «التقصير» الذي مارسته بحق الوزير الاتحادي الذي اتصل شخصيا يحتج على إدراج قصاصتنا فقرتين فقط من مداخلته.

طلبت من المدير العام أن يمهلني دقائق حتى آتيه من الأرشيف بنسخ من التغطيتين. كانت القصاصة الصباحية تضم حوالي ألف كلمة، والمسائية ضمت فقرتين للوزير. هز فنجيرو رأسه وطلب مني الانصراف. أقسمت وأنا أنزل إلى غرفة التحرير ألا أفوت أي فرصة للعمل في الخارج بعد هذا التصرف المتخلف من وزير ظل لعقود من الزمن يقارع الحكم في البلاد ويصدع رؤوس أفراد الشعب البسيط بالديمقراطية وحقوق الإنسان، وحين تولى مسؤولية وزارية كبرى لم يجد من شغل يشغل به باله غير متابعة تغطية (لاماب) لمداخلاته.

← لاشك أن الـ «بي.بي.سي» غدت أهم محطة في حياتك المهنية.

■ صحيح تظل الـ «بي بي سي» أبرز محطة في حياتي المهنية، تدرجت فيها في مختلف مواقع المسؤولية من محرر ضمن الفريق الذي أطلق الموقع الإخباري لها على الأنترنت، مرورا بالراديو كمحرر ومخرج نشرات ورئيس تحرير مناوب ومقدم للنشرات والجولات الإخبارية، ومنشط لبرامج حوارية ومراسل في الأماكن الساخنة، ثم انتهاء بالتلفزيون، حيث كنت ضمن الفريق الذي أطلق القناة في ربيع عام 2008، وفيها توليت إنجاز التقارير الداخلية والتغطيات الخارجية وتقديم الأخبار والإشراف على غرفة التحكم (الغاليري) والترجمة الفورية. والآن أعمل كبير مراسلي «سكاي نيوز» العربية مسؤولا في مكتبها بلندن؛ وأغطي الأحداث الكبرى في مختلف أنحاء العالم.

← كيف تقرب القارئ من أجواء اشتغالك اليومي؟

■ لا توجد لدي أجندة محددة. في لندن غالبا ما يكون الطقس روتينيا. أستيقظ في السادسة صباحا على صوت الإميلات، أفتح المواقع الإخبارية أو أشاهد نشرات التلفزيون، من ثمة أتوجه إلى العمل لإنجاز تقارير أو مقابلات. وفي العادة أظل مستيقظا إلى منتصف الليل. أحيانا أستيقظ في جوف الليل لمعرفة آخر الأخبار ثم أعود للنوم.

أما في التغطيات الميدانية فغالبا ما نراهن على تطورات الأحداث أنقلها مباشرة عبر الأقمار الاصطناعية أو من خلال تدفق الصور مباشرة عبر الأنترنت live streaming. في الأوقات التي لا أكون مكلفا بالاتصالات المباشرة live نشرع في تصوير المشاهد وإجراء المقابلات. وما إن تنتهي الاتصالات المباشرة في نشرات الأخبار حتى نشرع في المونتاج وتسجيل تعليقي الصوتي ثم التنسيق مع المحطة المركزية للقناة قصد إرسال التقرير إليها. كثيرا ما ننسى أن نتناول الطعام أو نضطر للانتظار حتى الانتهاء من عمل اليوم. وقد يستمر عملنا أحيانا لحوالي عشرين ساعة متواصلة.

← مسارك غني بأحداث ساخنة نقلتها من ميادين الموت، كيف تتذكر بعضها اليوم؟

■ في كل تغطية جديدة أكتشف أنني لم أكن أعلم شيئا. لقد تركت حربا العراق وسوريا أثرا عميقا في نفسي وفي إدراكي الوجودي. كنت بعد سقوط بغداد أستيقظ كل صباح في الخامسة والنصف وأصعد إلى سطح الفندق وأنتظر دقائق قليلة أجول بناظري في أفق المدينة، فإذا بانفجار سيارة مفخخة هنا أو هناك. كانت المفخخات تستهدف في تلك الساعة الفنادق والمباني التي ينام فيها مسؤولون من مجلس الحكم الانتقالي أو مسؤولو منظمات دولية.

لن أنسى أبدا حين فجر انتحاري نفسه في مرقد الإمام موسى الكاظم ببغداد، وقتل الكثير من الزوار الشيعة. كنت أقوم بوصف ما أشاهده هناك عبر الهاتف للقسم الفرنسي في «بي بي سي»، فإذا بأحدهم يمر أمامي وهو يكنس جزءا من وجه طفلة وبقايا جمجمتها المفجرة، لم أستطع مواصلة الحديث.

في ليبيا لن أنسى أبدا حين حاصرتنا كتائب القذافي في شرق جبل نفوسة انا وجون سمبسون ومجموعة أخرى من الزملاء. كنا في خط التماس نصور بعض اللقطات، وكان خلفنا شاب ليبي يرتدي سروالا قصيرا يكرر ما نقوله بالإنجليزية، سألته أين تعمل فقال إنه يعيش في استراليا وعاد إلى ليبيا قبل أيام بعد غيبة استمرت خمسة عشر عاما. بينما نحن نتحدث إذا بقوات القذافي تبدأ هجوما مباغتا، ثم طوقتنا. اضطررنا لامتطاء سياراتنا والفرار بسرعة جنونية ونيران مدافع (الشيلكا) تطاردنا. قبل الإقلاع عرضت بسرعة على الشاب الليبي أن يركب معنا، فقال إنه سيختبئ بأحد المنازل القريبة.

حين رجعنا في المساء بعد استعادة الثوار لذلك الموقع، أخذني أحدهم إلى إحدى السيارات. كانت بداخلها جثة بدون رأس وقد نزع القلب فيها من موضعه. كان المنظر بشعا ومروعا. قال لي ذلك الثائر إن الجثة للشاب الذي كان يحدثني في الصباح بالإنجليزية.

بعدها بيومين توجهنا إلى جبهة أخرى في بلدة كيكلة. ما إن شاهد الثوار الكاميرا حتى أطلقوا قذيفة ثقيلة على موقع قوات القذافي المقابل، لم تمر دقيقتان حتى نزل علينا صاروخ أسقطتني قوة عصفه أرضا. اكتشفت إثرها أن ضرسين خلعا من مكانهما في فمي، لكن الأسوأ هو ما عشته في حلب وادلب بسوريا. لقد رأيت بأم عيني طائرة تطلق صاروخا فراغيا على بلدة حيان في شمالي حلب. سقط الصاروخ في أرض خلاء ففرحنا. لكن ما هي إلا دقيقة حتى عاد الطيار وأطلق صاروخا ثانيا حول حارة كاملة إلى غبار وقتل عددا من الأطفال والنساء الذين رأيت بقايا بعضهم متناثرة. في الليل جاء الدور علينا فبدأ قصف البلدة التي كنا فيها بالمدفعية الثقيلة، إحدى القذائف نزلت بمحاذاة منزلنا فوجدت الهواء يسحب من رئتي وقلبي في حنجرتي. وآخر هذه الحوادث في شتنبر 2013 حين سقط صاروخان على منزل ملاصق لنا في ريف ادلب. كان ذلك في الثانية والربع فجرا، من قوة التفجير فقدت حاسة السمع في إحدى أذني لمدة شهر ونصف تقريبا.

لكل حرب بشاعتها ومخاطرها، والمجال هنا لا يسمح بسرد كل الحروب وأحداث العنف التي غطيتها في مالي وجنوب السودان وليبيا وسوريا والعراق وأفغانستان وباكستان وجورجيا وغيرها.

← هل حدث أن فكرت في الابتعاد عن ممارسة هذه المهنة؟

■ أبدا. لا أظن أنني سأفكر في فراق هذه المهنة التي أعشقها عشقا صوفيا رغم الاستهتار والإسفاف والتطاول الذي تتعرض له مهنة الإعلام من الدخلاء وعديمي الكفاءة والمتسلقين. من النادر أن تسمع بأن صحفيا حقيقيا طلق هذه المهنة أو انصرف إلى غيرها. عدد كبير منا لا يغادرها إلا إلى دار البقاء.

الفارسي في لقاء جمعه في المكتب بلندن مع الرئيس اللبناني الأسبق أمين الجميل

عبد الرحيم الفارسي مع المقاتلين السوريين